جوزيف عون... يترجّلُ باكرًا؛ ليرقدَ بسلامٍ في تُرابِ "جبال الصوّان"

ورَحلَ الأستاذ جوزيف...
رُبّما، لأنّ كبارَ النّفوسِ تَتعَبُ أجسادُهم باكرًا فيَترَجّلون...
ربّما، لأنّه اطمأنّ إلى **ريّان وريبال ومروان، ومعهم إلى سبعةٍ وثلاثين عامًا من عمرِ المواكب**، وإلى آلافٍ وآلافٍ من طلبتِها الذين نهلوا من مَعينِها ثقافةَ الحياة.
ربّما، لأنّه اشتاقَ إلى التّرابِ الذي جاءَ منه؛ فشدَّ إلى "جبال الصّوان" الرّحال؛ لِيَبْتَني مِنْ صَنَوبراتِها عِرْزالًا يَخْتلي فيه بجبرانَ وعاصي، ومنصور... فيُخْرِجَ لهم هناك مَسْرَحيّةً جَديدةً لأجيالٍ وُلِدتْ، ولأُخْرى لمْ تُولَدْ بعد.
ربّما، لكلّ هذا رَحَلَ الأستاذ جوزيف، لكنّه يَقينًا لم يرحلْ لِيَجْعَلَنا نَشْتاقُ إليه، ولمْ يُمْعِنْ بالبُعادِ؛ لِيَتجَدّد، فهو حبيبُ الجميعِ، والْحبيبُ الْحبيبُ لا يُمَلُّ له مُقامٌ... ومن أبناءِ النّور هو... وأبناءُ النّور، عَطاؤهم دَفْقٌ مُتَجَدّدٌ ليسَ فيه انقطاعٌ.
رحلَ جوزيف تاركًا في قلوبِنا غصّةً هيهاتَ أنْ تزول؛ فلجوزيف عند كُلّ مَنْ عَرفَه وتَقرّبَ إليه وعاشَرَه مُعاشرةَ المدير والزّميلِ والمعلّمِ والرّفيقِ... بَصَمَةٌ خاصّة... علاقةٌ جميلةٌ بدفئِها وفرادتِها وخصوصيتِها... علاقةٌ تُعْطينا الحقّ في أنْ نُطلِقَ لعواطِفِنا الْعِنانَ ونوسّعَ لها ما شِئْنا من مَدى، لكنّها لا تُجيزُ لنا أنْ نُمعِنَ في الْحزنِ فنغْفُلَ عن تجربةٍ فريدةٍ لِمُرَبٍّ انحازَ بامتيازٍ إلى ثقافةِ الحياة، فخطا إلى المجالِ التربويّ ليتخذَ منه مِهْنةً ورسالة، وهو الذي تَرَبّى منذُ شبابِه على مبدأِ أنّ الفردَ جزءٌ من الْكلّ، وأنّ كلّ ما فيه للكُلّ، وأنّ الكُلّ هو وطنٌ خلاصُ أبنائِه لا يكونُ إلا بالوعي.
أحبّ جوزيف أدبَ الحياة، وأيْقَنَ أنّ لهذا الأدبِ قوّةً وقدرةً عجيبةً على البقاءِ والتّنوير والتّعبير؛ فأصرّ بصراعيةِ "مِدْلَج" في مسرحيةِ "جبال الصّوان"، أنْ يَنْقُلَ الأدبَ الرّحبانيَّ الخالدَ إلى أجيالٍ تُمارِسُ عليها شَتّى التّغْمِياتِ لِتنقطِعَ عن ثقافتِها، وتَنْفصِمَ عن حضارتِها؛ فاختارَ مِنْ مَسْرَحياتِ الرّحابنةِ بدايةً، الأعمالَ غيرَ المصوّرة، فأبدعَ مع فريقِه في تدريبِ الطّلبةِ عليها وإخراجِها، وأبدعوا هُمْ مَعهُ أداءً وتمثيلًا يَبَزُّ بعلويتِه وروعتِه أداءَ المحترفين، في أعمالٍ سَتُشَكِّلُ لنا ولسائرِ المهتمين بقضايا اللّغةِ ظاهرةً يجبُ أنْ ندرسَها بإمعانٍ علّها تزيحُ عن أعيُنِنا غشاواتٍ نُصِرُّ على التّمسّكِ بها، فنَتَفَكّرُ كيفَ استطاعَ جوزيف أنْ يُحبّبَ المسرحيةَ العربيةَ إلى أبناءِ الجيلِ الجديدِ فيتهافتون **عَرَبًا وأجانبَ**؛ كي يكونوا ضمنَ فريقِه المسرحي، أو يقبلون على حضورِ مسرحياتِه بشغفٍ كبير.
هذا غَيْضٌ من فَيْضِ تجربةِ رُكْنٍ من أركانِ المواكبِ هو جوزيف عون الّذي نودّعه اليومَ وداعَ أخٍ ورفيقٍ ومُعلّمٍ غَرَسَ حيثما حَلّ ثقافةَ الْفَرَحِ وحُبَّ الْحياة، فمن أبناءِ الحياةِ هو... وسلامٌ على أبناءِ الحياةِ يومَ يولدون، وسلامٌ عليهم يومَ يَرْحلون، وطوبى لذكراهُم النّابضةِ فرحًا في قلوبِ المحبّين...